دِير رَافَات/ دِير رَفَات/ وادي الصْرَار

قرية فلسطينية مهجرة، كانت قائمة على السفح الغربي لجبل من نهاية سلسلة جبال القدس الغربية، غربي مدينة القدس وعلى مسافة 26 كم عنها، بارتفاع يصل إلى 300م عن مستوى سطح البحر.

قدرت مساحة أراضيها بـ 13242 دونم، وكانت أبنية ومنازل القرية تشغل منها ما مساحته 10 دونم من مجمل تلك المساحة.

احتلت دير رافات على يد جنود من لواء "هأريل" الذي كُلِف بمهمة احتلال بعض قرى القدس بهدف توسع الطيق الواصل إلى مدينة القدس فكان احتلالها من بين تلك القرى التي احتلت وتم تهجير أهلها منها في 18 تموز/ يوليو 1948 في سياق عملية عرفت باسم "داني"

سبب التسمية

التسمية

من المعروف أنه في فلسطين ثلاث قرى تحمل اسم رافات وهي:

1ـ رافات قضاء القدس وهي التي تجاور أراضيها مدينتي رام الله والبيرة.

2ـ رافات ناحية جماعين وهي اليوم تتبع محافظة سلفيت.

3ـ رافات واد الصرار التي نحن بصددها في هذه الحلقة كانت تتبع الرملة في العهد العثماني ثم الخليل وفي بداية الأنتداب رجعت إلى الرملة وفي عام 1940م تحولت تبعيتها الإدارية إلى مدينة القدس ، أصبحت القدس تضم قريتان بنفس الأسم ومن أجل التفريق بينهما بقيت رافات قضاء القدس الأولى محافظة على أسمها وزيد على رافات واد الصرار كلمة دير لوجود دير في القرية يتبع البطريكية اللاتينية ، لذلك اشتهرت بدير رافات وفي بداية العهد العثماني في عام 1539م كانت رافات مقسمة إلى قريتان الأولى باسم رافات الجبل والثانية باسم رافات السهل وهن متجاورات.

الحدود

تحدّها القرى والبلدات التالية:

الشمال : خربة الحج حسن

الشرق: صرة

الشمال الشرقي: خربة الخلة

الموقع والمساحة

الموقع

تقع قرية رافات في أقصى الغرب من قضاء القدس وتقع على بعد (25) كيلومتراً من مدينة القدس ، وهي على حدود قضاء الرملة وتربض القرية على سفح جبل من نهاية سلسلة جبال القدس الغربية وتربطها بالقرى المجاورة طرق غير معبدة مع القرى المجاورة خصوصاً قرية صرعة واشوع وخربة اسم الله ودير أبان ومتوسط ارتفاع أراضيها عن سطح البحر (300) متراً تقريباً وهي أحدى قرى وادي الصرار.

المساحة والحدود

مساحة رافات حسب خريطة فلسطين عام 1945م (13242) دونماً منها (63) دونماً للطرق والوديان ويحدها من الشمال قرى قضاء الرملة وهي كفر روريا وخربة اسم الله وبيت جيز وخربة بيت فار ومن الشمال الغربي خربة بيت فار ومن الجنوب الغربي قرية البريج ومن الجنوب قرية دير أبان ومن الشرق قرية صرعا ومن الشمال الشرقي قرية كفر روريا.

السكان

عدد السكان

جاء في الأرشيف العثماني في عام 1539م أن رافات كانت قريتين في السهل والجبل وعدد العائلات الدافعة

لضريبة الزراعة (17) أسرة وفي نهاية الدولة العثمانية كانت رافات قرية واحدة فيها (35) نسمة وعدد بيوتها المعمورة (12) وفي عام 1931م وصل عدد أهالي رافات (320) نسمة منهم الخوارنة والرهبان وعمال الدير منهم (252) مسلمون منهم (128) ذكراً و(124) أنثى و(68) مسيحي منهم (41) ذكراً و(27) أنثى وللأهالي (69) بيت معمور وفي عام النكبة 1948م وصل عددهم إلى (499) نسمة وجاء في كتاب سجل النكبة الذي أعده الدكتور سلمان أبو ستة أن المسجلين من أهالي رافات في وكالة الغوث عام 1998م (522) نسمة أما مجموع اللاجئين من أهالي رافات في نفس السنة (3063) نسمة وجاء أيضاً في أطلس فلسطين للدكتور سلمان أبو ستة أن أهالي رافات المسجلين في وكالة الغوث عام 2008م وصلوا إلى (669) نسمة ومجموع لاجئي القرية وفقاً للتقديرات من السنة 2008م هو (4142) نسمة ، وفي عام 1961م كان عدد من بقي في رافات (10) نسمات وهم الخوارنة والرهبان في الدير.

عائلات رافات

من خلال الرواية الشفوية والمكتوبة قد تعرفنا على عدد عائلات رافات والتي هجرت عن القرية وهم : كليب ، الجعفري ، الأحمر ، حمد ، أبو العال ، السوقي أو (الدسوقي) ، الشيخ يوسف ، القطناوي ، عواد ، أبو محبوبة ، غَباش.

الساحات أو المضافات

كانت في القرية ساحتان الأولى للسيد عبد العزيز خليل مت عائلة الكلابية والثانية للسيد عبد القادر حمد وهما مختارا القرية وفي القرية مختار أول ومختار ثاني.

عائلات القرية وعشائرها

عائلات رافات

من خلال الرواية الشفوية والمكتوبة قد تعرفنا على عدد عائلات رافات والتي هجرت عن القرية وهم :

كليب

الجعفري

الأحمر

حمد

أبو العال

السوقي أو (الدسوقي)

الشيخ يوسف

القطناوي

عواد

أبو محبوبة

غَباش.

البنية المعمارية

الساحات أو المضافات

كانت في القرية ساحتان الأولى للسيد عبد العزيز خليل مت عائلة الكلابية والثانية للسيد عبد القادر حمد وهما مختارا القرية وفي القرية مختار أول ومختار ثاني.

المسجد

يوجد في رافات مسجد واحد اسمه مسجد الحاج حسن يصلى فيه الجمعة والجماعة أما صلاة العيد كانت تصلى إما في المناطق الواسعة مثل الجرون وكان يؤم الناس الشيخ أحمد السوقي وأحياناً يأتي الشيخ محمود العبد ومعظم صلاة الجمعة أو الجماعة في الساحات وخصوصاً في شهر رمضان المبارك والذي يؤذن ويؤم بالناس أيضاً الشيخ محمد عبد الله غباش وكان مأمور أوقاف يافا يبعث الوعاظ كثيراً إلى القرية وخصوصاً الشيخ كامل السوافيري ، الذي أعاد الحياة إلى المسجد بعد أن حاول رئيس الدير أن يؤجر المسجد ويزيل محرابه

معتقداً أن المسجد من أملاك الدير وكان ذلك في أيار 1936م ورفعت قضايا ومحاكم بذلك وربحت الأوقاف القضية.

التعليم

المدرسة

تأسست مدرسة مشتركة في عام 1944م لقرى اشوع وعرتوف وعسلين وصرعة وكان يطلق عليها اسم مدرسة أشوع الأميرية وكان ابناء رافات يذهبون إلى المدرسة وفيها حتى الصف السابع.

تاريخ القرية

من تاريخ رافات

يقول علماء الآثار أن رافات كثيرة الخرب مثل خربة جبل دير الطاحونة وخربة سوريك وخربة المشيرفة وجد فيها الكثير من الآثار الرومانية مثل مبان واساسات بيوت قديمة رومانية ومعاصر بالإضافة إلى المغر الكثيرة مثل مغارة جبل الراس ومغارة الجبعية ومغارة الحج حسن وفي القرية منطقة اسمها عراق الربيط وهي مغارة كبيرة كانت في أيام الخير تسع كل الابقار والأغنام في القرية وفي تل بطاشي يوجد فيه عدد من المغر وكانت ملجئ للغزلان.

رافات قبل 474 سنة

من خلال الوثائق العثمانية في بداية القرن السادس عشر الميلادي كانت رافات في موقعين سكنيين أحدهما شرق القرية وسمي رافات الجبل وغرب القرية وسمي رافات الساحل ولأهمية هذه الوثيقة والتي هي من عام 1539م ذهبنا إلى مؤسسة إحياء التراث للقاء عميد المؤسسة الاستاذ محمد الصفدي أبو صبحي والخبير في قراءة الخط العثماني حيث قرأ الوثيقة من الخط العثماني القديم إلى اللغة العربية ومما جاء فيها:

السطر الأول : قرية رافات الساحل تابع مذكور أي تابعة الرملة.

السطر الثاني والثالث والرابع فيها اسماء أرباب الأسر الدافعة لضريبة الزراعة وهم في السطر الثاني : نسيم ولد عبيد ، علي ولد قصار ، حسين ولد نصار ، مشفق ولد سيف ، أبو بكر ولد حميد ، محمد ولد حميد ، دويب ولد علي ، وفي السطر الثالث يبدأ : حميدي ولد مطر ، يعقوب ولد كيلي ، سيف ولد رضوي ، عيسى ولد خير الله ، غنيم ولد جمعه ، عبيد ولد ذياب ، عايد ولد مذكور ، والسطر الرابع يبدأ : حامد ولد خميس ، خطاب ولد عمير ، سبع ولد نصار ، عواد ولد حمدان ، ولهم (12) خانة (بيت معمور) وعندهم خمس عزاب وإمام واحد ، وتضمن السطر الخامس قيمة الضريبة ، وجاء في السطر السادس اسماء المزروعات التي دفعت الضريبة وهي : الحنطة والشعير وخراج الأشجار ورسم على النحل ورسم على المعزا ورسم باد هوى ودفعت رسوم مبلغ (5180) أقجة والأقجة عملة فضية عثمانية قيمتها الشرائية عالية في تلك الفترة.

وجاء في السطر الأخير أن للقرية مزرعة اسمها قبية وقيمة حاصلاتها (3000) أقجة ، ونفسر مما جاء في الوثيقة أن رافات الساحل كانت أراضيها خصبة ومزدهرة ، أما رافات الجبل فيسكنها أربع بيوت معمورة وأرباب دافعي الضريبة الزراعية هم : حسين ولد علي ، عميرة ولد عميرة ، محمد ولد مذكور (مذكور أي ما قبله أي أن محمد ولد مذكور هو محمد ولد عميرة) ، خاطر ولد خران ، عيسى ولد سليمان ، وعندهم رجل أعزب وهم يدفعوا قيمة الضريبة فقط الربع وكانت الرسوم (1500) أقجة و (25) أقجة رسوم باد هوى.

الخلاف بين الأهالي والدير

تجمع الرواية الشفوية أنه في بدايات 1880م تنازل أهالي رافات عن كل قريتهم للدير الذي أنشئ في تلك الفترة وذلك خوفاً من دفع الضريبة الزراعية والدير يقوم بدفع الضريبة إلى الدولة العثمانية وبقي الحال حتى قدوم الانتداب البريطاني وأهالي القرية يزرعون الأراضي ويدفعون للدير الثلث وبعدها وقع الخلاف لأن مسؤولي الدير الذين يتبعون البطريركية اللاتينية قالوا لهم أنتم هنا لا تملكون شيئاً والأرض ملك الدير وأنتم هنا فقط مزارعين وتفاقم الوضع حتى وصل برئيس الدير التعدي على أملاك الأوقاف وأجر المسجد وتعطلت الشعائر وعندما وصل مندوبي مأمور الأوقاف مع الوعاظ إلى القرية واخراج المستأجر منها وإعيدت إقامة الشعائر الدينية ورفعت القضايا في المحاكم وخسر الدير القضية منذ عام 1936م وبقيت القضايا مستمرة حتى عام النكبة من قبل المجلس الإسلامي الأعلى في القدس وتبين أن رئيس الدير كان يفرض شخصيته بالقوة وعندما علم رئيس الدير أن لهم حق المزارعة خف من حدته مع الأهالي واستمرت المحاكم حول ملكية الأرض الزراعية في القرية حتى علم النكبة 1948م.

الحياة الاقتصادية

الحياة الاقتصادية

من المعروف أن أراضي رافات كبيرة وواسعة ففيها السهل الواسع وفيه الجبل وعرف أن الأرض المزروعة فيها عام 1945م كانت (10779) دونماً ومساحة الأرض جميعها (13242) دونماً وتتمتع بمناخ ذي الجو المعتدل صيفاً والماطر في الشتاء وأراضي رافات ذات تربة خصبة جداً الأمر الذي جعلها وجهة كثير من المزارعين في القرى المجاورة للعمل فيها مثل : صرعة واشوع وعرتوف وجراش مما مكن أهلها والمزارعين فيها من زراعة العديد من المزروعات بالإضافة إلى الأشجار المثمرة وبالتأكيد كان الإهتمام بزراعة الدورة الصيفية والشتوية أما زراعة الدورة الشتوية فكانت مثلا لقمح والشعير والكرسنة والعدس والفول والبازيلاء ، أما الدورة الصيفية فكان الإهتمام أكثر بزراعة السمسم والحمص والذرة ومن مزروعات المقاثي البندورة والخيار والفقوس والبطيخ والشمام والبامية والعُصفر.

مصادر المياه

ولوجود عدد من العيون زرع في رافات الخضروات والسلق والسبانخ والبقدونس والجرجير والنعنع والفجل والبقلة بالإضافة إلى زراعة الخس واهتم بزراعة الأشجار المثمرة مثل ا لتين والصبر والعنب والتفاح واللوزيات.

عيون القرية

1. عين البلد.

2. عين طريف.

3. عين المالح.

4. عيون الخلة.

5. بير الطبلاوي.

6. بير بورقيبة.

الثروة الزراعية

الثروة الحيوانية

كان للثروة الحيوانية في رافات أهمية حيث كان في القرية قبل النكبة 1948م أكثر من عشر رعوات من الغنم ورعوات عددها أكثر من (200) راس غنم وكان لمسؤولي الدير رعوة غنم تصل إلى (150) رأس وفي القرية راعي العجال وهو لرعي الأبقار بالإضافة إلى الجمال والخيل والبغال والحمير واهتموا بتربية الطيور مثل الدجاج والحمام.

وكان منتوج العسل في بعض البيوت وأهالي رافات كانوا يسوقون منتوجاتهم الزراعية في أسواق الرملة والقدس وبيت لحم.

اللباس والزينة في القرية

الأزياء الشعبية

زي الرجال

في قرية رافات زي الرجال هو نفسه في القرى المجاورة بل كل فلسطين ألا وهو القمباز ويقال له كبر ، واللباس الداخلي هو السروال وهو مصنوع من القماش الأبيض وغالباً ما يكون مصنوعاً من القطن كذلك القميص أو الصدرية والتي هي تحت القمباز أيضا مصنوعة من قماش القطن وكان غطاء الرأس الطاقية المصنوعة يدوياً بالسنارة من خيوط القطن وهي طاقية الصيف أما طاقية الشتاء فمصنوعة من الصوف وأهم غطاء الرأس كانت الكفية وهي غالباً لكبار السن وأيضاً الحطة والعقال ملبوس جميع الأعمار وفي أيام الشتاء يلبس فوق القمباز الجاكيت أو الفروة والعباءة أحياناً أما أحذية القدم فمصنوعة من الجلد وحزام الوسط كان مصنوع من القماش يسمى شملة أو من الجلد العريض ويسمى كشاط.

زي الأولاد

الأولاد كان لباسهم الثوب (الدشداشة) وقليل منهم يلبس القمباز الصغير وخصوصاً في المناسبات أما طلاب المدرسة فكانوا يلبسون القميص والبنطلون وخصوصاً البنطلون القصير في أيام الربيع والصيف وأيضاً أحذيتهم

مصنوعة من الجلد.

الأزياء الشعبية عند النساء

عن أزياء النساء تحدثنا الحاجة أم أحمد فاطمة شحادة محمد الجعفري والمولدة في رافات عام النكبة 1948م لكن هذه المرأة خبيرة في الأزياء الشعبية والتطريز وما زالت تعمل في هذا الميدان وبدأت تحدثنا وقالت : الثوب في رافات مثله مثل أثواب القرى المجاورة وله دور بارز في إحياء التراث الشعبي والمرأة عندما تبدأ بخياطة ثوبها يعني أنها راعية وحامية لهذا الزي لأن هذا العمل هو فن وذوق وأصالة والاهتمام به مطلوب لأن نساء اليوم ابتعدن عن هذا الزي وخصوصاً الثوب ومن الأثواب التي كانت تلبس في رافات:

1. ثوب أبو خطين ومن القماش المصنوع في المجدل.

2. ثوب عادي وهو الثوب العملي وفيه من ستة عروق إلى عشرة.

3. ثوب العنبر وأخذ اسمه لان قبة الصدر جميلة ولها شكل خاص.

4. ثوب حبر وهو من القماش الأسود وحريره قليل وخاصة ما يكون لكبار السن.

5. ثوب الجلاية وهو ثوب عادي لكن العروق أرفع قليلاً من العادي وهو بست عروق.

6. ثوب الملكة (ملكة) وهو مطرز بالألوان الجميلة والقماش الجميل وهو فقط للعرايس.

حزام الوسط (الخصر)

يلبس هذا الحزام على الثوب وهو مصنوع من الحرير المقلم اللماع الأحمر ويختلف هذا الحزام ما بين الصبايا وكبيرات السن ويطلق على حزام الوسط لكبرات السن كشمير أزرق وهو مصنوع من الصوف.

القندرة

كانت أحذية النساء المصنوعة من الجلد يطلق عليها اسم الوطا والوطا لونين الأحمر والأصفر وكان يشترى من أسواق الرملة وبيت لحم وكبيرات السن يلبسن القندرة السوداء وبدون رباط.

غطاء الرأس

كان غطاء الرأس للنساء هو الخرقة ويطلق عليها اسم غُدفة وتكون بيضاء اللون وإذا مات أحد من أبناء القرية

تقوم النساء بصبغ الخرقة باللون النيلي وهي من علامات الحداد على الميت.

والمرأة الكبيرة في السن والعرايس يلبسن تحت الغُدفة الوقاة المصنوعة من القماش الأسود أو الأحمر بحجم الرأس مطرزة أو مخيطة بالحرير ويصف عليها عملة من الفضة وأحياناً العرايس ، الصفة تكون من الذهب وكذلك أيضاً الكثير من كبيرات السن تلبس طاقية مخيطة بالحرير فوق الرأس وتحت الخرقة.

احتلال القرية

الهجرة والتطهير العرقي

تعتبر قرية رافات من قرى القدس الغربية واحدى قرى واد الصرار وقريبة من منطقة باب الواد لهذا فقد شارك أهلها بمساعدة الثوار رغم بساطة عدتهم وبعد خروج القوات البريطانية دخلت قوات نظامية صغيرة من الدول العربية لحماية الشعب الفلسطيني من الكارثة دون خطة لمهاجمة اليهود وتقول الرواية الشفوية أنه بعد سقوط قرية بيت محسير يوم 10/5/1948م وجائت القوات العربية بعد 15/5/1948م ولم يعيدوا بيت محسير على الرغم من أغلاق شارع باب الواد بدأت القوات الإسرائيلية بقصف قرى باب الواد بالمدفعية وضربت قرية أشوع بالطائرات وقصفت رافات بمدافع هاون أدى ذلك إلى هجرتنا ونحن أهالي رافات لا نملك شيئ في مواجهة اليهود.

وجاء في المجلد القيم لوليد الخالد (كي لا ننسى) أن قرية رافات اجتيحت بتاريخ 17و18/7/1948م في أثناء المرحلة الثانية من عملية داني التي نفذها الجيش الإسرائيلي وأن القرية سقطت في قبضة وحدات من لواء هرئيل في نهاية العملية تقريباً ، ويفيد المؤرخ الإسرائيلي بني موريس أن الذين تخلفوا في جوار القرية غادروها مع اقتراب طوابير هرئيل وبداية قصف مدافع الهوان على القرية ، ويضيف أن الذين مكثوا في القرية ما لبثوا أن اجبروا على الرحيل.

ثم تجمع الرواية الشفوية من أهالي رافات حيث قالت أن أهالي رافات عندما طردوا من القرية قسم ذهب إلى أراضي دير أبان والقسم الثاني ذهب إلى قرية البريج وسكنا الجبال والمغائر وأنتظرنا أيام وليالي على أمل العودة وكان معنا أهالي صرعا وبيت فار وبيت سوسين وصمد الثوار مرابطين على سكة الحديد وبعد منتصف شهر عشرة عام 1948م اشتد القصف على قرى دير أبان والبريج وعلى سكة الحديد وانسحب الجيش المصري من أثر الضربات القوية من المدافع وطرد أهالي دير آبان والبريج منهما على طريقة التطهير العرقي وذلك يوم

19/10/1948م وشرد أهالي رافات إلى القرى مثل صوريف وبيت أمر حتى استقر الأمر بنا إلى واد البيار غرب قرية الخضر والناس تسكن المغائر وتنتظر الفرج.

وهكذا هجر أهالي رافات من بلدتهم وهم لا يعملون عن غدهم شيئاً.

القرية اليوم

أهالي رافات اليوم

بعدما وصل إليهم الأخبار حول تدمير بيوت القرية أصبحوا غارقين في الحيرة ، وأفكارهم مشتتة نتيجة طردهم موزعين في مخيمات اللجوء خصوصاً مخيم الدهيشة والعروب والقرى المجاورة وهم اليوم في مخيمات الخليل وبيت لحم والأردن يعيشون على أمل العودة إلى بلدتهم الحبيبة رافات واد الصرار إن شان الله تعالى.

الباحث والمراجع

المراجع

1- بلادنا فلسطين، مصطفى الدباغ

2- كي لا ننسى، وليد الخالدي.

3-الباحث والمؤرخ عباس نمر..

4- صفحة قرية دير رفات المهجرة

الاستيطان في القرية

مستوطنات أقيمت على مسطّح البلدة بعد :1948جفعات شمش

روايات أهل القرية

رواية الدكتور ياسين عايش خليل

حين خرج اهلونا بنا من قريتنا رافات / او دير رافات / عام 1948 كان عددنا خمسة الوالد والوالدة وعبد الكريم / بكر والدي / وأنا ثم عيد الذي ظل فيما علمت من بعد انه كان طوال ايام الهروب والاختباء محمولا على عنق عبد الكريم لا يكاد يفارق عنقه إلا في لحظات الرضاعة وكانت الوالدة والوالد يتبادلان في جرجرتي مع ما يحملان من أمتعة وزاد قليلين....رحلة قيل لنا انها شاقة جدا مصحوبة بمخاوف القتل من اليهود الذين كانوا يتعقبوننا

...ولا أكاد اذكر شيئا من تلك المشقات فلم أكن قد بلغت الأربع او الخمس سنين من عمري غير السعيد...وغاية ما أذكره ان نساء العيلة واطفالها جميعا زج بهم ذات ليلة في كهف كبير وتولت إحدى النسوة وكانت شخصيتها قوية دور كاتم صوت وكاتم كح حتى لا يفطن اليهود الذين يتعقبوننا إلى وجودنا في ذلك الكهف...أذكر ذلك لأنني كححت فقالت لي : سطح وفجر اللي يسطح كرشك...وكانت هذه العبارة سببا لكراهيتي الشديدة لتلك المرأة في قابل ايام عمري!!

نزل بنا الوالدان في أماكن عدة لا اذكر اسماءها حتى استقررنا في كهف كبير علمت فيما بعد انه من أراضي قرية ارطاس في منطقة بيت لحم وقد اختاروا ذلك المكان لأن في ارطاس مسايل مياه منها كانوا يجلبون لنا الماء الذي منه نشرب وقد يجود عليهم أصحاب بساتين تلك القرية ببعض الخضراوات ...أما الخبز فكان شبه معدوم...وقد ألجأ الجوع والدي ذات يوم الى مغامرة قام بها هو ورفيق أعرابي له ؛ إذا عثرا على خمار هائم على وجهه وقررا ان يعودا ذات ليلة الى قريتنا ليستحضرا طحينا ودجاجا وسمنا وحماما....وبعض الأثاث والملابس ريثما تهدأ الأحوال ونعود جميعا إلى منازلنا.....هكذا كانوا يقولون لنا حين كبرنا.

خرج الصديقان أبي والاعرابي ليلا وكنا نؤمل ان يعودا بخير كثير فمعهما حمار قبرصي يحمل كالبغل وفي صبيحة تلك الليلة دخل والدي المغارة وحيدا لا اعرابي معه ولا حمار ولا شيء مما املنا ان ياتيشنا به من طعام او كساء غير صرة حقيرة ...كان الحزن يلفه وجلس يقص على والدتي قصته ، قال : اكتشفنا اليهود وسلطوا نيران

أسلحتهم نحونا فقتل الاعرابي وأصيب الحمار في قوائمه قبل أن نصل القرية ولولا اختبائي بين عرانيس الذرة لقتلت ايضا، وفي أثناء ا ختبائي كنت اسمعهم يتراطنون ، كما سمعت أنين امرأة ، وحين ابتعدوا عني قليلا زحفت صوب المرأة التي كانت تئن ، وكانت مصابة إصابات عميقة ولا تقوى على الحركة ، ولم يكن بوسعي أن اساعدها ، فتركتها وأنا حزين ، ثم سألته والدتي : ما هذا الذي في الصرة؟ فقال : شوية طحين مبرد لقيتهم باقي خابية في قرية....؟؟- مما لا أتذكره. ..سارعت والدتي لأخذ الصرة من يده ، وأقبلت تعجن حبة الطحين هذه ثم تركت العجين وقامت تبحث عن أعواد حطب جاف أشعلت بها النار ثم جعلت العجين اقراصا ووضعتها في النار وما تغير منه اللون فهو ماكول - على ما كان يخالط قتر الخبز من رائحة عفن نفاذة كادت امعاؤنا - على جو عنا الشديد - تتقيؤه ...وما زالت سواة ذلك الخبز في فمي إلى اليوم وأنا ابن السبعين وأكثر!!!

انتقلنا من ذلك الكهف اذ أكلنا الدلم - والدلم دويبة تعيش في الأماكن المعتمة والرطبة ، وقد وجدت هذه الدويبة في أجسامنا على بؤسنا مادة تتغذى بها وهي تحدث في الأجسام حكة شديدة مؤلمة - إلى كهف واسع رحيب سكن معنا فيه خالي ابو عدنان وأسرته وأبو يونس الخراسي وأسرته وأمه الضريرة التي كانت تعرف بالخراسية وقد عمرت وظلت مع ابنها الذي كان بارا بها سنوات طوالا ولا نعرفها إلا بالخراسية .كما جاورنا في ذلك الكهف أسرة زنجية الأصول كانت من سكان قرية رافات أيضا وتعرف بأسرة ابو شريط....اتخذت كل أسرة من هذه الأسر الاربع حيزا كانوا يسمونه مقطاعا تنام فيه على أكوام من شجرة برية ذات اشواك تجلب وهي خضراء لم تصلب اشواكها بعد وتسمى هذه الشجرة البلان في لغة شرق الاردن ، والنتش في لغة اهل رافات ، وتبسط فوقها قطع من الخيش او الحصير وعليها ننام متلاصقين حتى يدفئ أحدنا الآخر ...وكان لهذا النتش استعمالات أخري فهو حين يجف يتخذ للطهي والدفء والتخلص من البراغيث ، ومن حسن حظ الفلسطينيين ان طبيعة ارضهم ملاى به ...ولو ان الأمر بيدي لجعلته رمزا من رموز فلسطين الوطنية ، لأنه صديق أسر الكادحين وطعام دوابهم أيضا. ...أما باب تلك المغارة الضخمة التي غدت مساكن لأربع أسر فكان يوضع عليه جذع شجرة ضخمة ليحمي السكان من خطر الوحوش ومن خطر الجن والأرواح الشريرة التي كانت أمهاتنا يرعبننا بها...ومن سوء الطالع فلم تنجح تلك الغرفة من منع الضبع من دخول مقصوراتنا ....كان ذلك في شتاء قارس هطلت فيه الثلوج بكميات ضخمة حتى سميت تلك السنة بسنة الثلجة الكبيرة وغدت تاريخا يؤرخ بها فيقال ولد فلان سنة الثلجة وتوفي فلان سنة الثلجة وكانت هي سنة1950 ، ويبدو أن الضبع حاولت أن تجد لها ماوى من شدة البرد فدخلت المغارة فاحس بها الخراسي فهو الأقرب إلى جهة الباب فاشعل سراجه فرأى الضبع تشمشم فصرخ بصوت منهدج عال : الظبع الظبع رحنا يا زلام، فاستيقظ والدي وخالي وأبو شريط - بالياءالمشددة - وصرخنا نحن الأطفال والأمهات وكان عددنا يقارب العشرين ، فهربت الضبع وخرجنا من المغارة حفاة اشباه عراة ننظر ونحن بين خوف ورغبة في مشاهدة هذا الكائن الوحشي المرعب الملاى اخيلتنا بتصورات عنه تجمع بين

الحقيقة والوهم حتى غدا هذا الحيوان خرافي الصورة بقدرات خارقة ونسجت عن وحشيته قصص فنتازية ، ولم نلبث طويلا خارج المغارة اذ الزمتنا امهاتنا على العودة إلى فرشنا قبل ان ياتينا الجني ابو رجل مسلوخة فيتخطفنا...

وللضبع في ذاكرتي صور مرعبة فقد كان اباؤنا في الاماسي التي نسهر فيها على ضوء سراج حقير لا يكاد ينير شيئا من وجوه من حولك فلا ترى إلا ملامح باهتة من وجوه كالحة قد اباسها الزمان الغشوم يقصون علينا قصص اعتراض الضبع لهم في اسفارهم الليلية بين قريتنا والقرى القريبة منها كديرابان واشوع وسجد وبيت محسير واللطرون ودير محيسن وخلدا ورأس ابو عمار وبيت نتيف وكفرورية والبريج وبيت اعطاب. ..فقد اعترض مسير أبي ذات ليلة ضبع ضخمة مرت في اثنائها ملامسة اياه ثم كررت ملامستها له ثانية لكي تضبعه - فقدان الوعي فيغدو المضبوع يركض خلف الضبع ويصبح : وقف لي يا يا ... إلى أن تنتهي به إلى موكرتها- بنطق الكاف الفلسطينية والموكرة هي الوكر - فتاكله فيها ، غير ان نباهة يوسف عايش افقدت الضبع صيدها الثمين ، إذ لما انطلقت بعد الملامسة الثانية اياه رشقته ببولها فادرك ان الأمر جد وأن الخطر اشتد فرقي شجرة عالية وحينها عادت الضبع إليه وظلت تحوم حول ساق الشجرة وتصرخ وتضرط ويوسف عايش فوق الشجرة يدخن سجائره الهيشي حتى ادبر الليل وحل الصباح وبزغت الشمس ... وأما غباش صاحب الروايات الطريفة فمما ذكره ان قافلة من المسافرين ليلا التقتهم ضبع شرسة بالت على ذيلها ورشقت به أحد رجال تلك القافلة فأخذ الرجل يصرخ مناديا الضبع : يابا يابا وقف لي والرجال ينادون : ولك هاظ الظبع مش أبوك. ولكنه لم يستجب بل ظل يركض خلف أبيه الضبع وفي الصباح وجدوا بقايا ملابسه ملطخة بالدم ، وأخذوا يتلاومنون : ان ليس فيهم رجل رشيد يعيد للمضبوع وعيه بضربه بحجر في رأسه حتي يسيل دمه لأنه إذا سأل الدم - على ما يعتقدون- فقد اتفرج الهم.

وأما حكاياتهم عن الأشباح والمارد والعلاج وأبو رجل مسلوخة والجن والعفاريت فلا تكاد تنتهي فقد كان فلان مسافرا ذات ليلة على ظهر حمار وإذا بالحمار يتوقف فجأة وعبثا حاول راكبه ان يحثه على المسير فحاول أن يتبين السبب ففوجئ بمخلوق قد تدلت قدماه إلى الأرض ورأسه في السماء يركب خلفه وهو الذي ثبت الحمار في الأرض ومنعه من المشي...او ان جديا اسود ظهر أمامهم وهو يثغو وكلما حاولوا الامساك به توارى عن الأنظار يكرر معهم هذا المشهد ليلة كاملة ودون أن يتمكنوا منه ابدا ....او يسمعون أصوات نساء يزغردن ويرقصن في كهف ليالي الخميس وكلما حاول الشجعان منهم تبين حقيقة ما يسمعون انقطعت الاصوات وقد يسمعون أنينا عيقا يتهادى إلى اذانهم من بعض الكهوف المظلمة او من بعض الاماكن الخربة فيفسر لهم اهل الدراية والنباهة والكبراء ان الأنين الذي تسمعون ان هو الا انين قتيل قتل ظلما هنا ولم يؤخذ بثاره فهو لا ينفك يخرج صوته او شبحه يذكر بماساته...وأما اصوات الزفة والمغنيات والمزغردات ومشهد العروس فهو

لعروس فجعت في يوم زفافها فهي لا تنفك تظهر للناس متمردة على ظلم وقع عليها...وأما العلاج فهو مخلوق لا يرى ولكن يسمع له صوت يقلد فيه على نحو ما صوت رجل او امرأة ، والراجح عندي انه رجع صدى صوت راع في برية او رجع صدى صوت في بئر معطلة ...كانت هذه الخرافات زاد ثقافتنا في طفولتنا وظلت مخاوفنا مما كنا نسمع ملازمة لنا فبقينا نخاف من الظلام ومن الأماكن المهجورة ومن الكهوف حتى كدنا نبلغ الخامسة عشرة من أعمارنا .وصارت في تلك السن تتداخلنا أسئلة واستفسارات :لم لم نر نحن شيئا مما كان يروى لنا عن الأشباح في تلك الكهوف والمغاور في أثناء دخولنا فيها نفتش عن اعشاش العصافير ؟ ولم لم نسمع انات نساء في تلك الاحقاف والشقوق الكبيرة ؟ وأين ذلك العلاج وذو الرجل المسلوخة؟ وحين كبرنا اكثر كنا نرى السواح رجالا ونساء يأتون إلى الكهوف ينبشون في تربتها ولم نسمع أحدا منهم أصيب بسوء من جني او جنية ، بل كان ذلك مدعاة لشعورنا الدفين بالدونية امام هؤلاء الشقر والشقراوات الذين لا يعرفون الخوف وتولد فينا أيضا احساس غريب بأننا يجب الا نقل عنهم شجاعة ، فالأرض أرضنا والكهوف كهوفنا....وإذن فقصص الوالدين والوالدات اختراعات عقول معدومة الحظ من التعليم والثقافة أسهم فيها الجهل والركون إلى الموروث المعرفي الضحل وانعدام الأمن وانعدام الإنارة الكافية في بيوت لا إنارة فيها غير السرج بفتائلها النحيلة خوفا من زيادة استهلاك الطاقة من الكاز، فتبدو على جدران البيوت لدى حركة النور صور الأجسام والأشياء كأنها أشباح تتراقص...وأما قصص البطولات الموروثة فلس غير قصة الزير سالم وقصة ابو زيد الهلالي التي كنا مشغوفين جدا بسماعها من القاء خالي عصر كل يوم ونحن متحلقون مع الكبار حوله وهو يقرا النثر ويترنم بالاشعار والصمت مطبق الا من صرخة اعجاب يبديها احد الكبار على عبارة وردت من مثل : فضربه على هامه حط راسه قدامه.

وأما قصص الصحابة والبطولات في الإسلام فلم نحظ بشيء منها

كان لأبي أخوان يكبرانه : علي وسعد، وقد نشأ أبي في رعاية علي لأن جدي وجدتي كانا ميتين منذ بلغ الوالد السنتين من عمره ، ويبدو أن والدي لم يعش طفولة سعيدة ولا مستقرة ، عرفت ذلك من عدم انسجامه مع أخيه سعد طوال حياتهما ..والذي كان يحدب علينا ويشفق هو عمي علي ، إذ كان أحسن حالًا وأصغر أسرة ، فلم ينجب غير ولد واحد وبنت واحدة ، وظل طوال عمره المديد يعاود زيارتنا ويجالسنا ، ونألفه لذلك ويألفنا حتى توفاه الله في أواخر السبعينات من القرن العشرين.....سكنا في طفولتنا متنقلين بين الكهوف بعد خروجنا من بلدتنا التي احتلها الصهاينة ، فكنا نهرب من كهف أكلنا فيه الدلم ، إلى كهف غزتنا فيه البراغيث ،زادُنا فيها ما كانت تجود به علينا منظمات الصليب الأحمر والأمم المتحدة ، ثم من بعض كسب أبي من عمله في البحث عن الأنتيكا مع عرب التعامرة في تل الفرديس في منطقة بيت لحم ، ولكنّ عمله هذا ،على حسنه ، كان محفوفاً بخطر غدر أقرانه به في العمل ،إذ علم أنه قد يقتل لو أنه وقع على لقيا ثمينة ، وحاول إخفاءها عن

أولئك الأقران الذين لا هم لهم غير الكسب السريع ، ببيع ما يعثرون عليه من لقى إلى بعض الكهنة والرهبان في كنائس بيت لحم وأدْيِرتها ، فترك العمل في حقل البحث عن الآثار ليكون حصّاداً في موسم الحصاد مع أمي ، وجدَّاد زيتون في موسم قطاف الزيتون ، وقد اهتدتْ أسرتنا إلى وجبة طعام نادرة ما أظن أن كل المختصين في كل أنحاء الأرض في شؤون الطبخ اهتدوا ،أو سيهتدون إلى تركيبتها الفريدة وتصنيعها البديع ....أمي هذه المرأة الأمية الساذجة أرادت أن تملأ بطوننا الفارغة بحساء ساخن يخلّصنا من عنت مضغ قطع الخبز الجاف ، فكانت لذلك تاتي برأس بصل كبير ، فتقطّعه شرائح في طنجرة كبيرة ، وتسكب فوقه قطرات زيت مما كانت تصنعه هي وأبي من زيتون يجنيانه غصباً أو أجرة من شجر ا لتلاحمة - أهل بيت لحم - ثم تدلق فوقه مقداراً غير قليل من الماء ،وحين يغلي الماء فوق موقد الحطب ، تضيف إليه كمية مناسبة من الملح ، ثم يصبّ هذا كله فوق قطع الخبز المعدّ في صحن واسع عميق فنسارع ، لتناول هذا المنسف الفريد ،ونحن سعداء وما عرفنا طوال طفولتنا في الكهوف فاكهة غير ما كنا نحصل عليه من حبات تين كنا نسرقها من أشجار التين المنبثة في براري بيت لحم ،وحين كنا نقطف ما نتمكن من قطفه كنا نشكل فريق استطلاع ومراقبة وفريق هجوم سريع ، هدف الفريق الأول التحقق من خلو البستان من الناس ومتابعة رصد المكان من قادم مفاجئ ، وهدف الفريق الثاني الانقضاض السريع على شجر التين....وقد دفعنا مع حرصنا بألّا نقع في قبضة ملّاك تلك البساتين الثمن غالياً مرتين :كانت المرة الأولى حين جاء الناطور وكان اخي عبد الكريم فوق إحدى الأشجار فصرخنا عليه نحن فريق الاستطلاع ليفرّ ، ومن شدة خوفه سقط على الأرض وانكسرت يده اليسرى ، ومع ذلك لم يمكّن الناطور منه ، ففرّ معنا وهو يصرخ.

وكانت الثانية في موقف مشابه وقعت مع ابن بلدتنا صديقنا يونس الخراسي الذي تعلق ثوبه بجذع شجرة التين التي كان فوقها حين عزم على الفرار من الناطور القادم ، وظل حينا من الزمان يصرخ وهو عالق بجذعها متدلٍّ منه ، وحين دنا الناطور منه سقط بقدرة قادرعن الشجرة فُجاءة ، وانكسر ساعده أيضا.

وأما الماء الذي كنا نشربه فهو إما مستحضر من آبار تجميع قديمة ، أو من قيعان يتجمع فيها الماء في فصل الشتاء ، وكانت في تلك المياه عوالق كثيرة من البعر والقشّ والديدان المختلفة الأشكال والأسماء ، وكنا نتخلص من تلك العوالق بوضع قطعة قماش على وجه الإناء ثم يسكب الماء بما فيه فوقه فتظل العوالق الكبيرة فوق قطعة القماش...وهو ماء آسن في معظمه لوناً وطعماً ومحتويات غير مرئية ، وقد دفعْنا الكثير من صحتنا بسببه ، وبخاصة دودة الإسكارس التي لم يسلم أحد من جيلنا من أذاها.

ولا أذكر أننا شربنا ماء نقياً ونحن في الكهوف غير مرة واحدة ، وكانت حين لم يجد أهلونا ماء منه يشربون .وفي ذات صيف.كنا نسكن في بيت قديم مهجور في منطقة تسمى شعشبونا من أراضي بيت لحم ، وكانت

تمر بالقرب من بيت الخراسي المسمى قصر الهوا - وهو بيت مبني من الحجارة لعله من مباني الأتراك القدماء أو من مباني التلاحمة الأولين بنوه ليكون لهم دار إقامة في فصل الصيف ، وجعلوا في ساحته الغربية بئر ماء عميقة - ماسورة ماء ضخمة ممتدة من الخضر غرباً ،أو من العَرّوب ،إلى بيت لحم ،وهي التي تغذي المدينة بالماء. فماذا على والدي وأقرانه أن يفعلوا وحالهم كحال العيس في الصحراء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول ؟

في والدي سمة مستحبة هي الجراءة التي كان يسميها بعضهم جنوناً ، ولذلك كثيراً ما كان ينادى بيوسف المجنون ، فقرر أن ياتي بمفتاح مواسير ضخم ليفكّ خطّ المواسير، وكم حاول أقرانه من الجيران : الخراسي أبو يونس وخالي أبو عدنان وعيسى عبد الهادي ، ابن عمّ والدي ، وأبو شريَّط الزنجيّ الأسود الفاحم ...أن يثنوه عن عزمه على فكّ مربط المواسير ، لكنهم ما نجحوا ففك المربط ، فانطلق الماء هادراً مندفعاً في السماء، وتشكل مسيل ماء جارف غمر ساحة قصر الهوا ، ثم تدفّق في البئر، والناس صغارهم وكبارهم ، يقفون مترقبين ومتلهفين بأن تمتلئ البئر قبل أن تدهمهم الشرطة ، و كان والدي يجلس هناك يدخن ، ويعلن عن سعادته الغامرة بما صنع .وحين أوشكت البئر على الامتلاء سارع ليعيد ربط المواسير، وكان كلما حاول ، يقذف به الماء ، أو يقذف بمفتاحه ، والناس في قلق شديد من بطش الشرطة بهم جميعاً لو جاءوا والماء المنهوب لا يزال يتدفق بقوة ، وبعد محاولات كثيرة نجحوا في مسعاهم ،وعلت البسمة وجوههم ، وزال عنهم الخوف، وبقينا نحن تتلذذ بشرب ماء نقي أشهراً عدة.

كان مسكننا في شعشبونا قد قرَّبنا من مخيم الدهيشة ، وكانت بعض النسوة يفضِّلن الذهاب إلى المخيم ليخبزن في الأفران فيه بدل ، أن يظللن ملطوعات أمام الصاج يخبزن خبزهن، وكانت زوجة خالي من هذا الفريق الذي فضل خبز الفرن على خبز الصاج ، فكانت تحمل عجينها على رأسها ، وتقطع مسافة طويلة حتى تبلغ غايتها ، وتصادف ذات يوم أن طلب والدي مني ،كما طلب خالي من ولده عدنان أن نذهب صبيحة أحد الأيام إلى مدرسة أنشئت في خيمة كبيرة في ذلك المخيم، وحين عرضنا ، نحن الطفلان ، أمرنا على معلم كان يلبس على رأسه كوفية بيضاء ويرتدي قمبازاً وسروالاً ، رفض تسجيلنا لأننا ما زلنا صغيرين ، فعدنا أدراجنا .

وفي طريق عودتنا استوقفنا ماء كان يسيل بين الخيام ، فأخذنا نلعب فيه ، ومرت بنا زوجة خالي أم عدنان فصرخت بنا : إحنا مودينكم على المدرسة واللا تلعبو في الطين ! فقال لها ابنها : طردنا الأستاز ، لأنا صغار .فقالت لنا : تعالوا وراي .ولما بلغت خيمة الأستاذ أحمد ، أقبل نحوها ، فسارعت بمناولته رغيفاً ساخناً محمراً ، وأقسمت ليأخذنّه . ثم قالت : ليش طردت هلولدين ؟ فقال : هما صغيران - وطبعا كان حكمه علينا بالصغر من نحولة أجسامنا ، ولم نكن في أكبر الظن قد بلغنا السادسة من أعمارنا..فرجته أن يقبل ابنها ، فهو يكبرني ببضعة

أشهر ، كما أنه أطول مني قامة ، فوافق الأستاذ أحمد على تسجيله وانتظامه في المدرسة ، أما أنا فعدت أدراجي ، ومن هذه الحادثة تقدمني عدنان في الترتيب المدرسي.